الباب الثاني عشر

المجالس

أ- المجالس في اللغة والاصطلاح

المجلِسُ في اللغة مكانُ الجلوس. قال ابن منظور[1]: «المَجْلَس بفتح اللام المصدرُ، والمَجْلِس [بكسرها] موضعُ الجلوس... وقال اللحياني: هو المَجْلِس والمجلِسة... ويقال: فلانٌ جليسي، وأنا جليسُه... وجالسته فهو جِلْسي وجليسي. وتجالسوا في المجالس».

فلفظةُ المَجْلِس تدلُّ على مكان الجلوس، وبهذا المعنى وردتْ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١١] وفي الحديث الشريف[2]: «إياكم والجلوسَ في الطرقات، فقالوا: يا رسول الله، مالنا من مجالسنا بُدٌّ، نتحدث فيها. فقال رسول الله ﷺ: فإذا أبيتم إلا المجلسَ[3]، فأعطوا الطريقَ حقَّه. قالوا: وما حقُّ الطريقِ يا رسول الله؟ قال: غضُّ البصر. وكفُّ الأذى، وردُّ السلام، والأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر».

ويبدو أن دلالةَ اللفظة تطوَّرت، فصارت تدلُّ على أهل المجلس الجالسين فيه. قال ابن منظور: «والمجلسُ جماعةُ الجلوس. أنشدَ ثعلب:

---

(١) اللسان/ جلس.

(٢) رياض الصالحين/ ٩٥.

(٣) وجاء في مبارق الأزهار ٢/ ١٤٤ «مَجْلَس بفتح اللام مصدر ميمي» وفسره بمعنى الجلوس.

لهم مَجْلسٌ صُهْبُ السِّبالِ أذلَّةٌ سواسيةٌ أحرارُها وعبيدُها

وفي الحديث: وإن مجلسَ بني عَوْفٍ ينظرون إليه، أي أهل المجلس».

ثمَّ أضاف التطوُّرُ الدلاليُّ إلى الكلمة معنى آخر، إذْ أصبحت تعني ما يُقال في المجلس من أدب وعلم وسياسة. ومنذ أواخر القرن الثاني الهجري سُمِّيتْ بعضُ الكُتب باسم المجالس، وتضمَّ ما كان يحاضر به العلماءُ تلاميذهم.

ومن أقدم الكتب التي وُسمت بهذا الاسم كتابُ «المجالسات عن مالك» لعبد الله بن وهب المصري المالكي[ت: ١٩٧هـ]. وأشهرُ ما حُقّق من كتب المجالس ونشر «مجالسُ ثعلب» لإمام النحو في الكوفة أحمد بن يحيى[ت: ٢٩١هـ]. وذكر حاجي خليفة[١] كتباً أخرى تحملُ عنواناتُها لفظة المجالس، ومنها: «مجالسات العلماء» لعبيد الله بن أحمد النحوي[ت: بعد ٣٢٠هـ]، و«مجالس العلماء» لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي [ت: ٣٤٠هـ].

وذكر الأستاذ المحقق عبد السلام محمد هارون ما يميز المجالس من الأمالي، فقال[٢]: «أرى أن هناك فرقاً دقيقاً بين هذين اللفظين في أصل استعمالهما، وكلٌّ منهما مظهر لما كان يدور من تدوين لأقوال العلماء والمتصدّرين للتعليم، أمَّا الأمالي فكان يُمليها الشيخ أو من يُنيبه عنه بحضرته، فيتلقفها الطلاب بالتقييد في دفاترهم. وفي هذا يكون الشيخ قد أعدَّ ما يمليه، أو يلقي إلى الطلبة ما يشاءُ من تلقاء نفسه. وأمَّا المجالسُ فتختلفُ عن تلك بأنها تسجيلٌ كامل لما كان يحدث في مجالس العلماء. ففيها يلقي الشيخ ما يشاء من تلقاء نفسه، وفيها كذلك يُسألُ الشيخُ، فيجيبُ، فُيَدَوَّن كلُّ ذلك فيما يسمَّى مجلساً».

قد تقول: ما ذكرته مِن انطواء المجالس على محاضراتِ العُلماء هو إلى العصر العباسي أقربُ؛ لأن العلوم التي عرفها العصر الأموي لم تكن قد ازدهرت الازدهار الذي يخوِّلُها أن يحاضِرَ بها العلماءُ، ويدوِّنها عنهم الطلابُ، وتمازَ من الأمالي.

---

(١) كشف الظنون ٢/ ١٥٩١.

(٢) مجالس ثعلب/ ٢٣.

ونحن، إذْ نوافقُ على ما تقول، لا نبخسُ العصرَ الأمويَّ فَضْلَه، ولا ننكرُ على مجالسِ الخلفاء والوُلاة ما كان يدورُ فيها من جدال قيِّم، وحوار ذكيّ، تناول فيه الجُلساءُ أمورَ الدين والسياسة، والأدب، والنقد بأساليبهم الفطرية. وهي إذا افتقرت إلى سَعَة الآفاقِ العلمية، لا يُعْوِزُها البيانُ الأدبيّ المشرق أيّاً كان الموضوعُ الذي تخوضُ فيه. ولولا هذه البذور العلمية الأموية لما حفلت المجالس العباسية بالعلم، ولما اتخذت لفظةُ «المجالس» هذا المصطلح العلمي الرفيع.

ب- أنواع المجالس وأغراضها

لو التمستَ أساساً تعتمدُ عليه في تقسيم المجالس إلى أنواع لما وجدْتَ خيراً من الموضوعات التي تعالجها المجالسُ نفسُها. فتوزعها وفقَ أفكارها، فإذا هي مجالسُ دينية، ومجالس اجتماعية، وأخرى علمية ورابعة أدبية. غير أن هذا التقسيم متعذِّر لأمرين:

أولُهما ما أشرنا إليه من أن العلوم لم تكن قد تطوَّرت التطوُّر الذي يميزُ بعضها من بعض. ويجعلُ تقسيم المجالس وَفْق موضوعاتها أمراً ميسوراً.

والثاني أن المجلسَ الواحد قد تعالَجُ فيه أمورٌ، يختلطُ فيها الدينُ بالسياسة، والعلمُ بالأدب، والنقد الأدبيُّ بالسلوك الاجتماعي، فتضطرُّ عندئذٍ إلى أن تقسم مرةً أخرى ما قسمت.

ولهذا آثرنا أن نقسم المجالسَ على من كانوا يعقدونها، أو تنعقدُ في أكنافهم، فنجعلها ثلاثة أقسام: مجالسَ الخلفاء، ومجالسَ الأمراء، ومجالس العلماء. وهذا التقسيمُ لا يعني بالضرورة أن المجالس تختلف فيما تعالج من أغراض. فربَّما وجدتَ مجالسَ الخلفاء عامرةً بالعلوم التي تحفلُ بها مجالسُ العلماء، وحينئذٍ تجد نفسك مُرغماً على الإقلاع عمَّا اعتزمت من التقسيم وفقَ الموضوعات إلى التقسيم وفق الرعاة.

١- مجالس الخلفاء

أبرزُ ما يطالعك في نصوص المجالس الرسمية التي تحدَّرت إليك عن قصور الخلفاء في العصر الأموي أنها تصطبغ بما يميزُ شخصيات الخلفاء من

طباع وأهواء وثقافة، إمّا لأن الخليفة نفسه كان يختار الموضوعات المعروضة للنقاش، فيثيرُ ما يحبُّ أن يحاوره فيه جلساؤه، ويأتي اختيارُه تعبيراً عن خُلقه وذوقه ونزوعه. وإمَّا لأن جلساءه يعرفون ما يُرضيه، فيخوضون فيه، وما يسخطه فَيعرضون عنه.

إن كان الخليفة نزَّاعاً إلى اللهو والغناء كيزيد بنِ معاوية أو الوليد بن يزيد جالسه أهلُ المعازف والمتارف وشعراء الغزل، فسامروه بالباطل الذي يتَّجرون به. وإن كان من أهل الدهاء والبيان كمعاوية بن أبي سفيان، أو عبد الملك بن مروان جالسه أهلُ الرأي والتدبير، وعشاقُ الأدب والنقد، فقارضوه أخبار العرب وأشعارهم وناقشوه في شؤون الدولة وإدارتها. وإن كان من أهل الدين كسليمان بن عبد الملك، أو عمر بن عبد العزيز كان المتضلِّعون من الفقه، وأئمةُ التفسير، وكبارُ الوعاظ بطانته وأصفياءه، فجالسهم ليذاكروه فيما أحلَّ الله وحرم، وجعلوا مجلسه منبراً يشعّ منه العلم والوعظ إلى عامة الناس.

ولا يُفهمنَّ ممَّا ذكرنا أن ارتباطَ الأفكار التي تُدار في المجالس بشخصيات الخلفاء قاعدةٌ مطردة؛ فربَّما سَئِمَ الجادّون وقارَ الجِدِّ، وأحبُّوا أن يُجمُّوا أنفسهم بمجلسٍ من مجالس الطرب، فصدحتْ في قصورهم الأوتار. إن الوليد بن عبد الملك[1]، على ما عُرف به من اشتغال بالغزو والبناء عن اللهو والغناء، جالس المغني المكي عبيد بن سريج، فجلس ابن سريج بعيداً، فاستدناه، ثم قال له:

«قد بلغني عنك ما حملني على الوِفادة بك من كثرة أدبك، وجودة اختيارك، مع ظرف لسانك وحلاوة منطقك.

قال: جعلتُ فداك يا أمير المؤمنين، تسمع بالمعيدي لا أن تراه.

قال الوليد: إني لأرجو ألَّا تكون ذاك. هات ما عندك.

فاندفع ابنُ سريج يغنّي بشعر الأحوص:

أمنزِلَتَيْ سلمى على القِدَمِ اسْلَما وقد هجْتُما للشوق قَلْباً مَتيَّما

فقال الوليدُ: أحسنتَ وأحسنَ الأحوصُ، ثمَّ قال: هيهِ. فغنَّى ابنُ سريج بشعر عديِّ بن الرقاع، يمدحُ الوليد:

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٦/ ٣٢.

صلَّى الذي الصلواتُ الطيّبات له والمؤمنون إذا ما جمَّعوا الجُمعا»

على هذا النحو ظلَّ الوليدُ يستنشد، وابنُ سريج ينشدُ، فيتغنَّى بأبيات ممّا مُدِح به الوليد، حتى أخذ الطرب من الخليفة كلَّ مأخذ. قال ابن عساكر وهو يروي بقية المجلس:

«...فأشار الوليدُ إلى بعض الخدم، فغطَّوْهُ بالخِلَع، ووضعوا بين يديه كِيَسَةَ الدنانير، وبِدَر الدراهم».

ومن مقارنة المجالس الرسمية الأموية بعضِها ببعض يتبيَّن لنا أن مجالس عبد الملك بن مروان كانت من أحفلها بالسياسة والأدب، ومن أبعدها عن التبذُّل والصفاقة، وأن عبد الملك نفسه كان فيها كلها أو جلها قطب الرحى، إذ كان يسأل ويجيب، ويعلِّق ويوجه، ثم يخرج منها، وهو صاحب الرأي الراجح، والقول الفصل.

ومع ذلك فإن عبد الملك لم يكن يبخس المعارضَ حقَّه، ولا ينكر عليه حُجَّته، بل كان يعزو الفضل إلى ذويه، ولو بعد حين من انقضاء الحوار، وانطواء المجلس. يتبيَّن لك ذلك من مناقشة الأمور الإدارية والمالية في مجلس حضره خالد بن عبد الله، فقال قولاً سديداً، أنكره عليه عبد الملك. وبعد حين تبيَّن أن الرأي ما رآه خالد، فاعترف عبد الملك بالخطأ، وأقرَّ لخالد بالفضل. وإليك نصَّ المجلس كما رواه ابن عبد ربّه[١]:

«جلس يوماً عبد الملك بن مروان، وعند رأسه خالدُ بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وعند رجليه أميةُ بنُ عبد الله بن خالد بن أسيد، وأُدخلت عليه الأموال التي جاءت من قبل الحجاج، حتى وضِعت بين يديه. فقال: هذا والله التوفير، وهذه الأمانةُ. لا ما فعل هذا، وأشار إلى خالدٍ، استعملته على العراق، فاستعمل كلَّ مُلطٍّ[٢]فاسق، فأدَّوْا إليه العشرةَ واحداً. وأدى إليَّ من العشرة واحداً، واستعملت هذا على خراسان- وأشار إلى أمية- فأهدى إليَّ برذونين حَطِمَيْنِ[٣]. فإن استعملتكم ضيَّعتم، وإن عزلتكم قلتم: استَخَفَّ بنا، وقطَّع أرحامنا.

---

(١) العقد الفريد٤/ ٢٣.

(٢) مانع الحق.

(٣) أسنا وضعُفَا.

فقال خالد بن عبد الله: استعملتني على العراق، وأهلُه رجلان: سامعٌ مطيع مناصح، وعدوٌّ مُبغِضْ مكاشحٌ[١]. فأمَّا السامع المطيعُ المُناصح فإنَّا جَزَيْناه ليزدادَ وُدّاً إلى وُدِّه. وأمَّا المُبْغِضُ المكاشِحُ فإنَّا داريْناه ضِغْنَه، وسَللناه حِقْده، وكثَّرْنا لك المودَّة في صدور رعيتك، وإن هذا جَنَى الأموال، وزرع لك البغضاءَ في قلوب الرجال، فيوشك أن تنبت البغضاءُ، فلا أموالَ ولا رجالِ».

لقد توهَّم عبدُ الملك بن مروان أن إدارة الحجاج الحازمة، وجبايته الأموالَ الوافرة أَعْوَدُ على الدولة بالفائدة من السياسة الحكيمة الحليمة التي آثرها الولاةُ الآخرون، فسفَّه خالداً وأمية. فلما ثار عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على ظلم الحجاج سنة ٨١هـ ثبت أن ظلم الحجاج انقلبَ على الدولة، وكلَّفها أضعافَ ما جَبَى لها، فقالَ عبد الملك حينئذٍ: «هذا والله ما قاله خالد».

وإذا كان عبد الملك - وهو سيد المجالس من الأمويِّين- قد رأى رأياً، وأخطأ فيه، وحملَه الخطأُ على الاعتراف، وهو غيرُ مرغم عليه، فإنه في مجلسٍ آخرَ كان المؤدِّب والمثقِّف، والمعلِّم والموجِّه، لا لأغمار الناسِ، ومن يُتَوَسَّمُ فيهم الخطلُ والزلل، بل لواحدٍ من كبار الأدباء، ورجال الحديث الثقاتِ، وهو عامرُ بن شراحيل الشعبيّ [ت: ١٠٣هـ].

«قال الشعبيُّ[٢]: دخلتُ على عبد الملك بن مروان، فصادفته في سِرارٍ مع بعض مَنْ يقرب منه. فوقفتُ ساعة، لا يرفع إليَّ طرفَه. فقلت: يا أمير المؤمنينَ، عامرٌ الشعبي.

فقال: لم نأذنْ لك حتى عرفنا اسمك.

فقلت: نَقْدةٌ والله من أمير المؤمنين.

فلَمَّا فرغ ممَّا كان فيه، وأقبل عليه الناس رأيتُ في المجلس رجلاً ذا رُواء[٣] وهيئة، لم أعرفه.

فقلت: مَنْ هذا يا أمير المؤمنين؟

قال: الخلفاءُ تَسْأل ولا تسأل. هذا الأخطلُ الشاعر.

---

(١) مبطن العداوة.

(٢) مجالس العلماء/ ١٥٩.

(٣) منظر حسن وجمال.

قلتُ في نفسي: هذه أخرى. وخُضنا في الحديث، فمرَّ له شيء، لم أعرفه. فقلت: أكتبنيه، يا أميرَ المؤمنين.

فقال: الخلفاءُ تَستكتِبُ، ولا تُستكتب.

فقلت: هذه ثالثة.

وذهبتُ لأقوم، فأشار إليَّ بالقعود، فقعدت حتى خفَّ مَنْ كان عنده، ثم دعا بالطعام، فقُدِّمت إليه المائدةُ، فرأيتُ عليها صحفة، فيها مخٌّ، وكذا كانت عادته أن يُقَدَّم إليه المخُّ قبلَ كل شيء.

فقلت: هذا يا أمير المؤمنين كما قال الله جلّ وعزّ: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣/٣٤].

فقال: يا شعبيّ، مازَحْتَ مَنْ لم يمازِحْك.

فقلت: هذه والله رابعة.

فلَمَّا فرغ من الطعام، وقعد في مجلسه، واندفعنا في الحديث، وذهبتُ لأتكلم، فما ابتدأتُ بشيء من الحديث إلَّا استلبه مني، فحدَّث الناس به، وربّما زاد فيه على ما عندي. ولا أنشدته شعراً إلَّا فعل مثل ذلك، فغمَّني ذلك، وانكسر بالي له. فما زلنا على ذلك بقية نهارنا. فلَمَّا كان آخرُ وقتِنا التفتَ إلي، فقال: يا شعبيُّ، قد والله تبيَّنْتُ الكراهةَ في وجهك لما فعلت. أتدري أيُّ شيءٍ حَمَلني على ذلك؟

قلت: لا يا أمير المؤمنين.

قال: لئلَّا تقولَ: لئن فازوا بالملك أولاً، لقد فُزْنا نحن بالعلم، فأردت أن أعرِّفَكَ أنَّا فُزْنا بالمُلك، وشاركنا فيما أنت فيه.

ثم أمَرَ لي بمالٍ، فقمتُ من عنده، وقد زلَلْتُ أربع زلَّات».

ومن المجالس التي بدأت بالمسامرة الموفية على الغاية في الفصاحة، وانتهتْ بالنقد الانطباعي النابع من الفطرة، مجلسٌ تُغفل كتبُ النقد صدرَه الوصفيَّ، وتروي عجزه النقديَّ، حتى أصبحت أحكامُه أشهرَ من أن يجهلها متأدب، على غلبة الارتجال والسطحية على هذه الأحكام.

وخلاصةُ المجلس[1] أن أعرابيّاً انتجعَ مائدةَ عبد الملك. فزعم، وهو

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٩/ ٢٦١.

يُصيب من أطايب المائدة الملكية أنه أكل من زاد أطيب من كلِّ ما يأكلُ. وراح يصفُ طعاماً صنَعَه من لحم وشحم وتمر، ألقاه في جمر حتى نضج، فذاب شحمُه في لحمه، ونضج تمرُه بجمره.

قال الأعرابي: «فسمعتُ له أطيطاً[١] كتداعي عامر وغطفان، ثم أقبلتُ أتناول الشحمة واللحمة، فأضعُها بين التمرتين، فأهوي بها إلى فمي، فبم أحلفُ أني ما أكلتُ طعاماً قطُّ مثله؟

فقال له عبد الملك: لقد أكلت طيّباً، فممَّن أنت؟

قال: أنا رجل جانَبَتْني عنعنةُ تميم[٢]، وكشكشةُ ربيعة[٣]، وحوشيُّ[٤] أهل اليمن، وإن كنتُ منهم.

قال: فمن أيِّهم أنت؟

قال: من أخوالك، من عذرة.

قال: أولئك فصحاءُ الناس. فهل لك علمٌ بالشعر؟

قال: سلني عمّا بدا لك.

قال: أي بيت أمدحُ؟

قال: بيت جرير:

ألستم خير مَن ركب المطايا وأندى العالمين بطونَ راح

قال: وجريرٌ في القوم، فرفعَ رأسه، وتطاولَ لها.

قال: فأيُّ بيتٍ أفخرُ؟

قال: قول جرير:

إذا غضبتْ عليك بنو تميم حَسِبْتَ الناسَ كلَّهم غِضابا

فتحرك لها جرير ثم قال: أيُّ بيت أهجى؟

قال: قول جرير:

فَغُضَّ الطرفَ إنك من نميرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

---

(١) صوتاً.

(٢) جعل الهمزة عيناً إذا وقعت في أول الكلمة.

(٣) جعل كاف الخطاب للمؤنث شيناً.

(٤) غريب.

قال: فاستشرف لها جريرٌ.

قال: فأيُّ بيت أغزلُ؟

قال: قول جرير:

إنَّ العيونَ التي في طرفها حورٌ قَتَلْنَنا، ثمَّ لم يحيينَ قتلانا

قال: فاهتزَّ جريرٌ وطرب.

ثم قال: أيُّ شيءٍ قالته العربُ أحسنُ تشبيهاً؟

قال: قول جرير:

سَرَى نحوهم ليلٌ، كأن نجومَه قناديلُ، فيهن الذُّبالُ[1] المُفتَّلُ

فقال جريرٌ: جائزتي يا أميرَ المؤمنين للعذريّ.

قال عبدُ الملك: وله مثلها من بيت المال، ولك جائزتُك يا جرير، لا ننقصُ منها شيئاً.

وكانت جائزةُ جرير أربعة آلاف درهم وتوابعها من الجلان[2] والكسوة. فخرج العذريُّ بثمانية آلاف درهم، ورزمة ثياب».

من استعراضِك المجالسَ التي انعقدت في كنف عبد الملك بن مروان يتبيَّن لك أن الرجل كان على حظ عظيم من الدراية بالشعر وفهمه، وتذوُّقه ونقده. وأنه لم يكن يكتفي بالإصغاء إلى ما يقال في مجلسه، على النحو الذي تجلَّى في المجلس السابق، بل كان أحياناً يطرح البيت الغريب، ويسأل عن معناه، ثمّ يكافئُ المجيب المصيبَ. ويتبيَّن لك كذلك أن الأعراب المحيطين بالشعر خُبْراً كانوا يؤمّون مجلسه، فيجدون لديه الكنف الموطأ، والمرتع الخصب، فيمتعونه، وينتفعون منه، ويقدِّمون للنقاد مادَّة قيمة، يصنعون منها النقد. وإليك مجلساً من هذه المجالس التي أوتي جلساؤها من الظرف والمزاح مثل ما أوتوا من العلم والأدب.

«نَصَب[3] عبدُ الملك بن مروان الموائدَ، يطعم الناس، فجلس رجلٌ من أهل العراق على بعض الموائد، فنظر إليه خادمٌ لعبد الملك، فأنكره.

---

(١) ج الذبالة والذُبّالة: الفتيلة.

(٢) القطف والأكسية والبسط ونحوها.

(٣) الأغاني ٩/ ١٧٠.

فقال له: أعراقيٌّ أنت؟

قال: نعم.

قال: أأنت جاسوس؟

قال: لا.

قال: بلى.

قال: ويحك، دعني أتهنَّأُ بزاد أمير المؤمنين، ولا تنغِّصْني به.

ثم إن عبد الملك وقَفَ على تلك المائدة، فقال: من القائل

إذا الأَرَطى توسَّد أبرديه خدودُ جوازئٍ بالرمل عينِ[1]؟

وما معناه؟ ومن أجاب فيه أجزناه. والخادمُ يسمع.

فقال العراقي للخادم: أتحبُّ أن أشرحَ لك قائله، وفيم قاله؟

قال: نعم.

قال: يقوله عديُّ بن زيد في صفه البطِّيخ الرمسي. فقال ذلك الخادم، فضحك عبد الملك حتى سقط. فقال له الخادم: أخطأتُ أم أصبت؟

فقال: بل أخطأتَ.

فقال: يا أمير المؤمنين، لَقَّننيه هذا العراقيُّ، فعلَ الله به، وفعل.

فقال: أيُّ الرجال هو؟ فأراه إيَّاه، فعادَ إليه عبد الملك. وقال: أنت لقَّنتَه هذا؟

قال: نعم.

قال: أفخطأً لقَّنْته أم صواباً؟

قال: بل خطأ.

قال: ولمَ؟

قال: لأني كنت متحرِّماً بمائدتك، فقال لي: كَيْتَ وكيت، فأردت أن أكفَّه عني، وأضحكك.

---

(١) ديوان الشماخ/ ٣٣١، الأرطى: شجر ينبت بالرمل شبيه الغضا، توسّد: اتخذ وسادة، أبرديه: ظله وفيئه، الجوازئ: الظباء وبقر الوحش، عين: واسعات العيون، ومعنى البيت: إذا اتخذت الظباء أو بقر الوحش ظل الأرطى وفيئه وسادة.

قال: فكيف الصوابُ؟

قال: يقوله الشمَّاخ بنُ ضرار الغطفانيُّ في صفة البقر الوحشية، قد جزأت بالرُّطْب[١] عن الماء.

قال: صدَقت، وأجازه.

ثم قال له: حاجَتَك؟

قال: تنحّي هذا عن بابك، فإنه يَشينُه».

وإذا أخذنا بما بدأنا به الكلامَ على مجالس الخلفاء من تأثُّر الأفكار بشخصيات الخلفاء، فإنَّنا لا نستغرب أن يكون مجلسُ عمر بن عبد العزيز منبراً للترغيب عن الدنيا في الآخرة، والاستعداد للموت، والدعوة إلى التقوى والعدل.

«لَمَّا ولي عمرُ بن عبد العزيز الخلافةَ بعث إلى محمَّد بن كعب، وإلى رجاء بنِ حيوة، وإلى سالم بن عبد الله، فحضروا. فقال لهم: قد ترَوْنَ ما قد ابتُليتُ به، وما قد نزل بي. فما عندكم؟

فقال محمد بن كعب: يا أمير المؤمنين، اجعل الناس أصنافاً ثلاثة: اجعل الشيخ أباً، والنَّصَفَ[٢] أخاً، والشاب ولداً، فبرَّ أباك، وصِلْ أخاك، وتعطَّفْ على ولدك.

وقال لرجاء بن حيوة: ما تقولُ يا رجاء؟

فقال: يا أميرَ المؤمنين، ارضَ للناس ما ترْضَى لنفسك، وما كرهتَ أن يؤتى إليك فلا تأتهم إليه. واعلم أنك لستَ أوَّلَ خليفة يموت.

وقال لسالم بن عبد الله: ما عندك يا سالم؟

قال: يا أمير المؤمنين، اجعل الأمرَ يوماً واحداً، صرفته عن شهوات الدنيا، آخرُ نظرك فيه الموت، فكأَنْ قَدْ.

فقال عمر: لا حَوْلَ ولا قوة إلَّا بالله»[٣].

---

(١) العشب الرَّطب.

(٢) الكهل.

(٣) مختصر تاريخ دمشق ١٩/١٠٩.

٢- مجالس الأمراء

مجالس الأمراء تشبهُ مجالسَ الخلفاء فيما يُثار فيها من أغراض وأفكار، وفيمن يشاركُ فيها من ساسة وعلماء، لأنَّ القضايا التي تهمُّ الولاةَ في علاقتهم بالرعية، ولو كانوا في أقصى الأقاليم تضارعُ القضايا التي تهمُّ الخليفة في دمشق أو تطابقُها. فالاختلاف بين مجالس هؤلاء ومجالس أولئك لا يتعلق بالجوهر، بل بالدرجة. وعلّة هذا النمط من الاختلاف أن مجالسَ الخلفاء تناقش سياسة الدولة العامة والخاصة، والخارجية والداخلية، ومجالسُ الأمراء تخوض في أمور الإدارة ما اتَّصل منها بحاضرة الخلافة، وما اتَّصل منها بأحوال الرعية في كلّ إقليم من الأقاليم.

والفرقُ بين هذه وتلك كالفرق بين العامِّ والخاصِّ والدوليِّ والمحليِّ، لكنه يعني التكاملَ لا التنافرَ، والتبعيَّةَ لا المعارضة، كأنَّ فيه من الائتلاف أكثر ممَّا فيه من الاختلاف. حتى المسائلُ والشؤونُ الدينية والأدبية والنقديةُ التي كانت تناقش في مجالس الأمراء تضارع نظائرها التي كانت تناقش في مجالس الخلفاء، وهذا التماثلُ ناجمٌ عن أن أمراءَ بني أمية - وكلُّهم أو جلُّهم من العرب الأقحاح ولو كانوا في خراسان - ظلُّوا متعصِّبين للعربية، محافظين على الفصاحة، متعلّقين بالبيان، يَهتزُّون للأصيل الجزل من القول، سواءٌ أكان من المنظوم أم من المنثور.

فإنْ لم يَكن بدٌّ من الوقوف على فَرْق، فالفرقُ هو أن مجالسَ الخلفاء كانت تضمُّ عِلْيَةَ الشعراء والأدباء، وصفوةَ العلماء والفقهاء. حتى إن الولاة أنفسَهم كانوا إذا زارهم شاعر كبير، أو خطيب مفوَّه، أو فقيه متضلِّع، أو محدِّث ثقة، أو لغويٌّ واسع الاطلاع على أخبار العرب، غزير المحفوظ من أشعارهم كانوا يبعثون بهم إلى الخلفاء. وبهذا الاصطفاء يعلو مجلس دمشق غيره من مجالس المدن الكبرى في الأقاليم بالأعلام الكبار من طبقة ابن شهاب الزهري، والأخطل التغلبي، والشعبي.

لقد حفلت مجالس الولاة والأمراء بمناقشة الأمور الدينية والدنيوية، وتناولت كثيراً من قضايا السياسة والإدارة، والاقتصاد والأمن، والانصياع لأولي الأمر والثورة بهم، وتجلت في بعضها جراءة أسطورية، تقود صاحبها إلى الموت لتشبثه برأيه، مما يندر الوقوع على مثله في الأدب الملتزم قديمه وحديثه.

من المجالس الدينية مجلس انعقد للخلاف في حركة من كلمة، عقده

بلال بن أبي بردة [ت: نحو١٢٦هـ] وكان والي البصرة لخالد بن عبد الله القسري، روى الزجاجي المجلس فقال[١]:

«لاقى بلالُ بن أبي بردة عبدَ الله بن أبي إسحاق الحضرمي في حرف من القرآن. قال بلال: ﴿بِمَلْكِنَا﴾ [طه: ٢٠/ ٨٧] وقال ابن أبي إسحاق: ﴿بِمُلْكِنا﴾[٢]، فتراضيا بأبي عمرو، فوجَّه بلال إليه، فسألَ أبو عمرو عمَّا أراده له، فَعُرِّف، فدخل، وقد عرف قولَ بلال، فسأله بلالٌ، فأجازهما، وفضَّل قول بلال. فقال له ابن أبي إسحاق: أمَا قرأنا على مجاهد: ﴿بِمُلْكِنا﴾. فقال له أبو عمرو: أَخْبرتُ بما عندي. فوصَلَه بلال.

فلَمَّا خرج قال لعبد الله بن أبي إسحاق: والله لو أخطأَ الملوكُ لصوَّبْنا خَطَأَهم. فكيف إذا أصابوا؟ إن منازعةَ الملوك تُضْغِنُهم».

وكلمةُ أبي عمرو لا تنال من منزلة الحضرميِّ وثقة العلماء به، فقد كان - والقولُ للزجَّاجي نفسه- «رجلَ زمانه علماً ونبلاً وصدق لهجة، غير مُعْتدٍّ به، ولامتبجّح عليه». أَضِفْ إلى ذلك أن الميم ضُبِطتْ في المصحف بالفتح، وأن الفتح أشهرُ، وأن لها قراءة أخرى بالكسر.

وإذا كان بين الولاة من يعقد مجلساً دينياً للنظر في حركة من حرف لئلا يلحن في كتاب الله. فقد كان بينهم من يعقد مجلساً، يناقش فيه غلة مشبوهة من ألوف الألوف، ثم لا يتقبل ما ينصح له به، ويصرّ على الفساد واحتجان المال، حتى يفضي به الطمع وسوء الإدارة إلى المصادرة والموت في السجن.روى الطبري مجلساً من هذا النمط، فقال[٣]:

«كان خالد بن عبد الله القسري والي هشام بن عبد الملك على العراق قد اعتقد[٤] بالعراق أموالاً، وحفر أنهاراً حتى بلغت غلته [الخاصة به] عشرين ألف ألف.

---

(١) مجالس العلماء.

(٢) الآية ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ سورة طه الآية/ ٨٧، قرأ المدنيان «نافع وأبو جعفر» وعاصم بفتح الميم وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضمها، وقرأ الباقون بكسرها. انظر «النشر في القراءات العشر» ٢/ ٣٢١.

(٣) تاريخ الطبري٨/ ٢٥٥.

(٤) اقتنى.

فقال له العريان بن الهيثم: أيها الأمير، إن الناس قد رموك بأبصارهم، وهي قريش، وليس بينك وبينها إلّ وهم يجدون منك بُدّاً، وأنت لا تجد منهم بُدّاً. فأنشدك الله إلا ما كتبت إلى هشام، تخبره عن أموالك، وتعرض عليه منها ما أحبّ، فما أقدرك على أن تتخذ مثلها، وهو لا يستفسدك، وإن كان حريصاً على ذلك. فلعمري لأن يذهب بعض ويبقى بعض، خير من أن تذهب كلها. وما كان يستحسن فيما بينك وبينه أن يأخذها كلها، ولا آمن أن يأتيه باغ أو حاسد، فيقبل منه. فلأن تعطيه طائعاً خير من أن تعطيه كارهاً.

فقال: ما أنت بمتهم، ولا يكونُ أبداً.

قال: فقلت: أطعني، واجعلني رسولك، فوالله لا يحلّ عقدة إلا شددتها، ولا يشدّ عقدة إلا حللتها.

قال: إنا والله، لا نعطي على الذلّ.

قال: قلت: هل كانت لك هذه الضياع إلا في سلطانه؟ وهل تستطيع الامتناع منه إن أخذها؟

قال: لا.

قلت: فبادره، فإنه يحفظها لك، ويشكرك عليها. ولو لم تكن له عندك يد إلّا ما ابتدأك به كنت جديراً أن تحفظه.

قال: لا، والله، لا يكون ذلك أبداً.

قال: قلت: فماذا كنت صانعاً إذا عزلك، وأخذ ضياعك، فاصنعه، فإن إخوته وولده وأهل بيته قد سبقوا لك وأكثروا عليه فيك، ولك صنائع تعود عليهم بما بدا لك، ثم استدرك استتمام ما كان منك إلى صنائعك من هشام.

قال: قد أبصرت ما تقول، وليس إلى ذلك سبيل».

لم يَرْعَ القسريُّ حقَّ المجالسة والمناصحة، ولم يُصغ إلى جليسه، فوقع ما توقَّع ابنُ الهيثم. وخلاصة ما وقع أن خالداً سعى بظلفه إلى حتفه ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾. قال الزركلي في ترجمته: «عزله هشامٌ سنة ١٢٠هـ وولَّى مكانه يوسفَ بن عمر الثقفي، وأمره أن يحاسبه، فسجنه يوسفُ، وعذَّبه بالحيرة، ثم قتله في أيام الوليد». وقال الطبريُّ: «كان العريان يقول: كأنكم به قد عُزل، وأُخِذَ مالُه، ويُجنى عليه، ثم لا ينتفع بشيءٍ. فكان كذلك».

وإذا كانت مجالسُ الخلفاء تفوقُ مجالسَ الأمراء فيما يُعْرَضُ فيها من مسائل الدين والفقه، ويناقش فيها من شؤون الأدب والنقد، فإن مجالسَ الأمراء كانت تبزُّ مجالس الخلفاء في الكيد والمكر، وتطوير الحوار من الجدال بالألسنة إلى تحكيم السيوف في الرقاب، إمَّا لأن الخلفاء كانوا يُشلون الأمراءَ على المتمرِّدين ليريحوهم منهم. وإمّا لأن الأمراء كانوا يجدون المتعة في الإيلام والتنكيل.

وأبرعُ مَنْ برعَ في الإيقاع بمَنْ يُحاورهم من المعارضين الحجَّاجُ بنُ يوسف الثقفي، إذْ كان يُراوغ المعارض ويساورُه، ويجادله أمامَ جلسائه ويحاورُه حتى يقودَه من أنفه إلى حَتْفِه. روى ابنُ عساكر ما دار في مجلس من مجالس الحجّاج، فقال[1]:

«طلب الحجَّاج امرأةً من الخوارج، يقال لها فراشةٌ، فأعجزَتْه. وكانت تجهِّز أصحابَ البصائر[2] منهم، ثم جيءَ برجل. فقيل: هذا ممَّن جهزته فراشة.

فقال له - أي الحجاج-: يا عدوَّ الله.

قال: أنت أَوْلى بها يا حجَّاج.

قال: أين فراشة؟

قال: مرَّتْ تطيرُ منذ ثلاث.

قال: أين تطير؟

قال: تطيرُ بين السماء والأرض.

قال: أعن تلك سألتك؟ عليك لعنةُ الله.

قال: عن تلك أخبرتك، عليك غضَبُ الله.

قال: سألتك عن المرأة التي جهَّزتك وأصحابك.

قال: وما تصنعُ بها؟

قال: دُلَّنا عليها.

قال: تصنعُ بها ماذا؟

قال: أضربُ عنقها.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق٦/ ٢٢٤.

(٢) ربما أراد: من اعتقدوا وجوب قتال من خالفهم.

قال: ويلَك يا حجَّاج ما أجهلَكَ! تريد أن أدلَّك، وأنت عدوُّ الله، على مَنْ هي وليُّ الله؟ ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

قال: فما رأيُك في أمير المؤمنين عبد الملك؟

قال: على ذلك الفاسق لعنةُ الله ولعنة اللاعنين.

قال: ولمَ، لا أمَّ لك!؟

قال: إنه أخطأ خطيئةً طبَّقت ما بين السماء والأرض.

قال: وما هي؟

قال: استعماله إيَّاك على رقاب المسلمين.

فقال الحجَّاج [لجلسائه]: ما رأيكم فيه؟

قالوا: نرى أن تقتله قِتلةً، لم يُقْتل مثلها أحدٌ.

قال: ويلَكَ يا حجَّاج، جلساءُ أخيك كانوا أحسنَ مجالسةً من جلسائك.

قال: وأيَّ إخوتي تريد؟

قال: فرعون حين شاور في موسى قالوا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ وأشار عليك هؤلاء بقتلي.

قال: فهل حفظت القرآن؟

قال: وهل خشيتُ فِراره، فأحفظهُ؟

قال: هل جمعت القرآن؟

قال: ما كان متفرِّقاً، فأجمعهُ.

قال: قرأتَهُ ظاهراً؟

قال: معاذَ الله، بل قرأتُه، وأنا إليه.

قال: فكيف تراك تلقى الله إن قتلتك؟

قال: أَلقاه بعملي، وتَلقاه بدمي.

قال: إذن أعجِّلك إلى النار.

قال: لو علمتُ أن ذلك إليك أحسنتُ عبادَتَك، وأيقنتُ عذابَكَ، ولم أبغِ خلافَك ومناقضتَكَ.

قال: إني قاتُلك.

قال: إذن أخاصمك، لأنَّ الحكمَ يومئذٍ إلى غيرك.

قال: نقمعُك عن الكلام السيِّئ. يا حرسيُّ اضربْ عنقه، وأومأَ إلى السيَّاف ألا يقتله. فجعل يأتيه من بين يديه ومن خلفه، يروعه بالسيف. فلَمَّا أطالَ ذلك عليه رشحَ جبينُه.

قال: جزعتَ من الموت يا عدوَّ الله!؟

قال: لا، يا فاسقُ، ولكن أبطأتَ عليَّ بما لي فيه رجية[1].

قال: يا حرسيُّ، أعظم جرحَه. فلما أحسَّ بالسيف. قال: لا إله إلا الله... والله لقد أتَمَّها، ورأسُه على الأرض».

وإذا كان عبدُ الملك بنُ مروان صاحبَ الحظِّ الأوفى من المجالس الأدبية والسياسية في تاريخ الخلافة الأموية، فقد كان لواليه الأكبر الحجَّاج بن يوسف مثلُ هذا الحظِّ من المجالس في تاريخ الولاة، وربَّما كانت مجالس الحجَّاج أنكى وأدهى، وأشدَّ فتكاً وبطشاً من مجالس سواه.

لقد طغَى على مجالس الحجاج التَّوترُ في النقاش، وصُوِّر فيها من العنف، والتنكيل ما يُكْرَه عرضُه على منصة المسرح عرضاً تمثيليّاً، ولم يجد الحجاجُ أدنى غضاضة من أن يفعله، وأن يعرضه عرضاً حقيقياً واقعيّاً على مَسْمَع من الجلساء ومَشهْد، حتى غدت مجالسه أشبهَ بالسجون التي يُحشر فيها المعارضون، فيعذَّبون تعذيباً نفسياً وجسديّاً، وغدا الجلساءُ أنفسهم شركاء في التعذيب، ومحرِّضين عليه، كأن عدوى الطغيان انتقلت من الوالي إلى صحابته، فصاروا أعتى وأضرى من جلساء فرعون.

وهبك التمست للحجاج عذراً، يسوغ له أن يجعل مجلسه محكمة عسكرية تحاكم بقاضيها الفرد من يحمل السلاح على الدولة، فأنت لا تجد له مثل هذا العذر حينما يحاكم عالماً من طبقة سعيد بن جبير، كان قد خرج مع كثير من القراء على الأمويين في ثورة ابن الأشعث. فلما أخفقت الثورة، وجيء بالأسرى من (دير الجماجم) كان فيهم مطرف بن عبد الله الشخير، وعامر

(١) ما يُرجى.

الشعبي، وسعيد بن جبير. أما مطرف وعامر فقد كانا يريان التقية، فاعتصما بالتقية من المنية، وأما سعيد فقد أهلكته صراحته.

كان للحجَّاج في سجن ابن جبير عن قتله مندوحة، لكنْ أخذته العزَّةُ بالإثم، والاعتدادُ بالسلطان، فراح يسوغ بهذه الغاية كل الوسائل التي تحفظ له الولاية، يوجه براعته في المجادلة نحو وجهة واحدة، وهي أن يحملَ فرائسه على الإقرار بالأوزار، فمن اعترفَ بما اقترف، وتاب عمَّا أذنب حمَى رأسه من السيف، ومنْ أقرَّ وأصرَّ فتك به. ولو أنه أُوتي بعضاً من حلم معاوية ودهائه لوجَّه مجادلته في مجالسه توجيهاً آخر، ولراح يستتيبُ المعارضين، فيجعلهم مؤيِّدين أو محايدين، فلا يُريق دماً، ولا يُرْمى بظلم، ولا يبغِّض الخلفاءَ إلى العامة. وإليك نصَّ المجلس الذي عَقَده الحجَّاجُ لمحاكمة سعيد بن جبير، والحكم عليه، أمام الملأ من جلسائه وخلصائه.

روى الخبر الإمام الذهبي[1]، فذكر فيما روى أن الحجاج أمر باعتقال ابن جبير، فاعتقل وجيء به، فأدخل مجلسه. «فقال: ما اسمك؟

قال: سعيد بن جبير.

قال: أنت شقيُّ بن كُسَيْر.

قال: بل أمّي كانت أعلمَ باسمي منك.

قال: شقيتَ أنت، وشقيتْ أمك.

قال: الغيب يعلمُه غيرُك.

قال: لأبدلنَّك بالدنيا ناراً تلظّى.

قال: لو علمتُ أن ذلك بيدك لاتَّخذْتك إلهاً.

قال: فما قولُك في محمد ﷺ.

قال: نبيُّ الرحمة، إمامُ الهدى.

قال: فما قولُك في عليّ، في الجنة هو أم في النار؟

قال: لو دخلتُها، فرأيتُ أهلها، عرفت.

---

(١) سير أعلام النبلاء٤/ ٣٣٠، وانظر: ألف با ١/ ٤٧٨، والعقد الفريد ٢/ ١٧٧، وشذرات الذهب١/ ١١٠.

قال: فما قولُك في الخلفاء؟

قال: لستُ عليهم بوكيل.

قال: فأيهم أعجبُ إليك؟

قال: أرضاهم لخالقي.

قال: فأيُّهم أرضى للخالق؟

قال: عِلْمُ ذلك عنده.

قال: أبيت أن تصدقني.

قال: إني لم أحِبَّ أن أكذِبَكَ.

قال: فما بالُك لم تضحك؟

قال: لم تستو القلوب.

ثم أمر الحجَّاج باللؤلؤ والياقوت والزبرجد، فجمعه بين يدي سعيد.

فقال: إن كنت جَمعته لتفتدي به من فزع يوم القيامة فصالحٌ؛ وإلّا، ففزعةٌ واحدة تُذْهل كلَّ مرضعة عمَّا أرضعت، ولا خيرَ في شيء جُمع للدنيا إلَّا ما طاب وزكا.

ثم دعا الحجّاج بالعود والناي. فلَمّا ضُرِب بالعود، ونُفخ في الناي، بكى.

فقال الحجَّاج: ما يُبكيك؟ أهو اللهو؟

قال: بل هو الحزن. أمَّا النفخ فذكَّرني يومَ نفخ الصور. وأمَّا العود فشجرةٌ قُطعت من غير حقّ. وأمَّا الأوتارُ فأمعاء شاة، يُبعث بها معك يوم القيامة.

فقال الحجاج: ويلَكَ يا سعيد.

قال: الويل لمن زُحزح عن الجنة، وأُدخل النار.

قال: اختر، أيَّ قِتلة تريدُ أن أقتلك؟

قال: اخترْ لنفسك يا حجاج؛ فوالله ما تقتلني قتلةً إلَّا قتلتك قتلة في الآخرة.

قال: فتريد أن أعفوَ عنك؟

قال: إنْ كان العفوُ فمِنَ الله. وأمَّا أنت فلا براءةَ لك، ولا عذر.

قال: اذهبوا به، فاقتلوه.

فلمَّا خرج من الباب ضحك، فَأُخْبِر الحجَّاج بذلك، فأمر بَردِّه.

فقال: ما أضحكك؟

قال: عجبتُ من جرأتك على الله، وحلمه عنك!

فأَمَر بالنِّطع، فَبُسِط.

فقال: اقتلوه.

فقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٩].

قال: شدُّوا به لغير القبلة.

قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢/ ١١٥].

قال: كُبّوه لوجهه.

قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٢٠/ ٥٥].

قال: اذبحوه.

قال: إني أشهدُ، وأحاجّ أنْ لا إله إلَّا الله وحدَه، لا شريكَ له، وأن محمَّداً عبدُه ورسوله. خذها مني، حتى تلقاني يومَ القيامة. ثم دعا سعيدٌ الله، وقال: اللهم لا تسلِّطه على أحد يقتلُه بعدي.

فَذُبِحَ على النِّطْع».

٣- مجالس العلماء

لمْ نَقَعْ فيما لَدَينا من مصادر مطبوعة- وعلى رأسها مجالسُ العلماء للزجاجيّ- على نصوصٍ مطوَّلة مفصَّلة، متحدِّرة عن العصر الأموي، يمكنُ أن نعدَّها مجالسَ علميةً، كالمجالسِ التي تحدَّرت إلينا عن العصر العباسيّ، ولضآلة ما أحصينا عللٌ:

أُولاها أن العلوم في العصر الأموي لم تكن قد تطوَّرت واتَّسعت، وتفرَّعت، وبلغت حدّاً من الازدهار والنضج يحمل العلماءَ على الجدال في أصولها وفروعها.

والثانيةُ أن المؤرِّخين- وهم بشؤون الخلفاء والأمراء أحفلُ منهم بشؤون

العلماء- لم يُولوا مجالس العلماء حقَّها من العناية والرواية، فنقلوا من مجالس السياسةِ والإدارة أكثر ممَّا نقلوا من مجالس العلم والأدب.

والثالثةُ أن همَّتنا قَعَدت بنا عن الاستقصاء والتنقير، فلم نكشف من كنوز التراث إلَّا يسيراً من كثير. وما ظفرنا به من النصوص ليس أكثرَ من شَذَرات ونظرات، اختلفتْ فيها الآراء اختلافاً محدوداً، لا يرقى إلى مستوى الاجتهاد والابتكار، بل ينحصرُ في حدود السماع والنقل كقراءة آية، أو تفسير كلمة، أو شرح بيت. روى الزجاجي بعضَ هذه الشذرات التي سمَّاها مجالس، فقال[١]:

«حدَّثنا ابن شابور عن يحيى بن الحارث الذِماريِّ قال: اختلفتُ أنا ويزيد بن أبي مالك في: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣١][٢]، فقلتُ أنا: ﴿خَطَئًا﴾، وقال هو: ﴿خِطْئاً﴾. فقُمنا إلى عبد الله بن عامر اليحصبي، وكان إماماً في القراءة. وكان على المسجد، وكان لا يرى فيه بدعةً إلَّا غيَّرها. فسألنا، فقال: ﴿خَطَأً كبيراً﴾».

وذكر ابن خلّكان «مُجَيلِساً» من هذا الضرب، فقال[٣]:

«قال عيسى بنُ عمر لأبي عمرو بن العلاء: أنا أفصحُ من مَعَدِّ بنِ عدنان.

فقال له أبو عمرو: لقد تعدَّيتَ، فكيف تنشدُ هذا البيت

قد كنَّ يخبأن الوجوهَ تستُّراً فاليومَ حين بدأْنَ للنُّظَّار؟

أو: بَدَيْن للنظار؟

فقال عيسى: بدأن.

فقال أبو عمرو: أخطأتَ. يقالُ: بدا يبدو، إذا ظَهَر، وبدأَ يبدأُ إذا شرع في الشيء. والصوابُ: حين بَدَوْن للنظار».

ومن النصوص التي ضربت إلى المجالس بنسب، نصان، روي أحدهما عن

---

(١) مجالس العلماء/ ١٧٦.

(٢) قرأها ابن كثير: ﴿خِطَاءً﴾، وقرأها ابن ذكوان: ﴿خَطَئًا﴾، وقرأها الباقون: ﴿خِطئاً﴾. انظر «تلخيص العبارات في: القراءات السبع»/ ١١٢.

(٣) وفيات الأعيان٣/ ٤٨٧.

الكميت بن زيد، وروي الآخر عن الطرماح بن حكيم شاعرَي الشيعة والخوارج، وكلاهما كان من أفصح الشعراء في العصر الأموي، ومن أعلم الناس بأخبار العرب وأشعارهم والغريب والنادر من لغتهم. ومما يقرّب هذين النصين من مجالس العلماء دوران الحوار فيهما على ملأ، وإثارة الجدال بإلقاء السؤال، أو الوصول إلى الصواب بعد الخطأ في الجواب. روى الزجاجيُّ الأوَّلَ، فقال[١]:

«شهد الكميتُ الجمعة بمسجد الجامع، فأحاطَ به علماء أهلُ الكوفة ورواتُهم، فيهم حمّاد والطرمّاح، فجعلوا يسألون، فكانَ لا يُسأل عن حرف إلَّا كان كأنه مُمثَّل بين عينيه[٢].

فقال: ألا ألقي عليكم بيتاً؟

فقالوا: افعل يا أبا المستهلّ.

فألقى عليهم هذا البيت:

قذفوا صاحبَهم في ورْطةٍ قَذْفَك المُقلةَ وسطَ المُعْتَرَكْ

فجعلوا ينظرون فيه، ونودي بالعصر، ولم يصنعوا شيئاً، فسألوه عنه.

فقال: إن المقلة الحصاةُ التي يقسم بها القومُ ماءهم. قال: والمعنى: قذفوا صاحبَهم في ورطة شطر المعترك قذفك المقلة».

وروى أبو الفرج الأصفهاني الثاني فقال[٣]:

«جاء رجل من عبس إلى حلقةٍ فيها الطرمَّاح، فأنشده العبسيُّ قولَ كثيِّر في عبد الملك بن مروان:

فكنت المُعَلَّى إذ أُجيلتْ قداحهم وجال المنيح وسْطها يتقلقلُ

فقال الطرمَّاحُ: أما إنَّه ما أرادَ أنه أعلاهم كعباً، ولكنه موَّه عليه في الظاهر، وعنى في الباطن أنه السابع من الخلفاء الذين كان كثيرٌ لا يقول

---

(١) مجالس العلماء/ ١٦٦.

(٢) إلا وأجاب عنه وكأنه يرى جوابه أمامه.

(٣) الأغاني ١٠/ ١٥١.

بإمامتهم، لأنه أخرج عليّاً، عليه السلام منهم، فإذا أخرجه كان عبدُ الملك السابعَ. وكذلك المعلَّى السابعُ من القداح».

ومن النصوص التي قاربت مجالسَ العلماء الكاملة في طبيعتها العلمية، وأسلوبها الجدلي، نصٌّ اختلط فيه التفسيرُ بالاشتقاق، وشُفع فيه القرآنُ بالشعر، ودار حواره بين اثنين من كبار القراء واللغويين من مخضرمي الدولتين. وهو يدلُّ على أن مجالس العلماء في أواخر العصر الأموي أخذت تنمو وتتعقَّد. وتعتمد على العقل اعتمادها على النقل. روى الزجاجيُّ النصَّ في مجالسه، فقال[1]:

«جاء عمرُو بن عبيد [ت: ١٤٤هـ] إلى أبي عمرو بن العلاء [ت: ١٥٤هـ]. فقال: يا أبا عمرو، أيخلفُ الله وعدَه؟

قال: لا.

قال: أفرأيتَ مَنْ وعده الله على عمل عقاباً، أَيُخْلفُ وعده فيه؟

فقال أبو عمرو: مِن العُجْمة أُتِيتَ أبا عثمان. إنَّ الوعدَ غيرُ الوعيد. إنَّ العرب لا تعِدُ عاراً ولا خُلْفاً. والله جلَّ وعزَّ إذا وعد وفى، وإذا أَوْعد، ثم لم يفعل كان ذلك كرماً وتفضُّلاً. وإنما الخُلْفُ أن تَعدَ خيراً، ثم لا تفعلَه.

قال: فأوجدْني هذا في كلام العرب.

قال: نعم. أما سمعت قول الأول [يعني عامر بن الطفيل]:

ولا يرهبُ ابنُ العمِّ ما عشت صَوْلتي ولا أَخْتَتي من صولة المتهدِّدِ
وإني، وإنْ أَوْعدته، أو وَعَدْته لمخلِفُ إيعادي، ومنجزُ مَوْعدي؟

وتُكُلِّمَ في هذه الآية: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٤] فقيل: كيف خرج القولُ من الفريقين بلفظ واحد، وهو وعدٌ ووعيد؟

فقال: لأن العرب تقولُ: وعدته خيراً، ووعدته شرّاً. فإذا أسقطوا ذكر الخير والشر، قيل في الخير: وعدتُ، وفي الشرِّ: أوعدت».

---

(١) مجالس العلماء/ ٦٢. أختتي: أذل.

جـ- ملامحُ المجالس مُسْتنبطة من مجلس واحد

ذكرنا قبلُ أن فنَّ المجالس لم يَرْقَ في العصر الأموي رُقيّاً يُكسبه سماتٍ واضحةً، تُفْرِده من فَنَّي المحاورة والمناظرة، وفنّيْ المُلاحاة والمفاخرة، حتى إنَّك لتجدُ صعوبةً بالغةً في الحكم على المتشابهات من هذه الفنون، وأنت تحاولُ أن تسلك نصوصَها في أنماط متباينة، لا يُفضي بعضُها إلى بعض.

ولَمَّا كانت سماتُ المجالس أَبْهَتَ هذه الفنون تميُّزاً من سواها، وأقلَّها تفرُّداً بخصائص، لا يشاركها فيها غيرُها، فقد سمَّينا سِماتها «ملامحَ» لأن الملامح قَسَماتٌ صغيرة يستمدها صاحبها من سواه، غيرُ واضحة المعالم، وحظُّها من مشابهة غيرها فوق حظِّها من الاستقلال بشخصيتها.

قال ابن منظور[1]: «لَمَحَ إليه لَمْحاً وأَلْمَحَ: اختلسَ النظر.... واللمحةُ: النظرةُ بالعَجَلة.... وملامحُ الإنسان: ما بدا من محاسن وجهه ومساويه. وقيل: هو ما يلمح منه، واحدتها لمحة على غير قياس، ولم يقولوا: ملمحة.. وفي فلان لمحة من أبيه. ثم قالوا: فيه ملامحُ من أبيه أي مشابهُ، فجمعوه على غير لفظه».

وأبو هذه الملامح أو المشابه الحوارُ، لكنَّ هذا الأب لم ينقلْ ملامحه الوراثية إلى وريثٍ وحيد يخلفه؛ وإنَّما أنجب ذريةً فنية، درسنا منها المحاورة والمناظرة والملاحاة والمنافرة، وتستطيع أن تضيف إليها المناكرة والمحاضرة، والمجادلة، والمناقشة، والمسرحية. ويبقى الجامعُ بين ما قدم من هذه الفنون، وما يجدّ، شيئاً واحداً، وهو الحوار. ولهذا فليسَ من المُسْتغرب أن توسم المجالسُ بملامح، وُسِمَتْ بها الفنون الأخرى.

ولَمَّا كانت الحدودُ بين الأشباه والنظائر متداخلةً، فقد خشينا أن ندرس سماتِ المجالس دراسةً نظرية، فنخرج من الدرس بسمات المناظرة أو المحاورة، فَنُرْمى بالتكرار والاجترار. ولهذا آثرنا أن نستنبطَ ملامح المجالس الفكرية والفنية من مجلس واحد، نزعم أنه أجمع المجالس الأموية أفكاراً، وأصدقها عواطف، وأجملها أسلوباً، وهو مجلس ديني اجتماعي سياسي، يضمّ سليمان بن عبد الملك، وأبا حازم الأعرج، ويشهده علية القوم، وأبرزهم ابن شهاب الزهري.

---

(١) اللسان/لمح.

١- نَصُّ المَجْلِس[(١)]

«دخل سليقنلُكن عبد الملـ بـ المدينة حجّقٍ، ؤقِل: هلكِقِ أحدٌ أدرك عدَّةً من الصحقِة؟

قيل: نعمْ، لمأو حقزم.

ؤأرسل إليه، ؤلمَّ أقه. قِل: قِلمأق حقزم. ق هذا الجقءُ؟

قِل: وأيَّ جقءٍ رأيت مني، ق أمير المفمنين؟

قِل: وجوهُ القِس أتَوْني، ولم تأتني.

قِل: والله ق عَرَؤْتَني قبلَ يومي هذا، و ك أق رأيتُ ـ ، ؤأيَّ جقء رأيت مني؟

قِلتفت سليقن إلى الزهري، ؤقل: أصقب الشيخُ، وأخطأتُ أق.

ثم قِل: قِلمأق حقزم، قلق نلارهُ الموتَ؟

قِل: عمرتم الدنق، وخلِتم ا غخرةَ، ؤتلارهون الخروجَ من العمران إلى الخراب.

قِل: صدقتَ قلمأق حقزم، ليت شعري، قلق عند الله غداً؟

قِل: اعرضْ عملَ ـَ على لاقب الله عزّ وجلّ.

قِل: أين أجدهُ؟

قِل: قِل الله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [ا كنفطر: ٨٢/ ١٣-١٤].

قِل سليقن: ؤأين رحمةُ الله؟

قِل: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٦].

قِل سليقن: ليت شعري، لايف العرضُ على الله غداً؟

قِللمأو حقزم: أقّ المحسنُ ؤلاقِللآقئب يقدمُ على أهله. وأقّ المسيء ؤلاقلمِ ا يُقْدَمكه على مو كه.

ؤبلاى سليقن حتى عك نحيبُه، واشتلّكلاقِؤه. وقِل: قِلمأق حقزم، لايف لق أن نصلح؟

(١) التنلاِرة الحمدونية١/ ١٩٦.

قال: تَدَعون عنكم الصَّلَف[١]، وتقسمون بالسويّة، وتعدلون في القضية.

قال: وكيف المأخذُ من ذلك؟

قال: تأخذه بحقِّه، وتضعه لحقِّه في أهله.

قال: يا أبا حازم مَنْ أفضلُ الخلائق؟

قال: أُولو المروءة والنُّهى.

قال: فما أعدلُ العدل؟

قال: كلمةُ صدق عند من ترجوه أو تخافه.

قال: فما أسرعُ الدعاء إجابةً؟

قال: دعاءُ المحسن للمحسن.

قال: فما أفضلُ الصَّدَقة؟

قال: جهدُ المقلِّ إلى البائس الفقير، لا يتبعُها مَنٌّ ولا أذىً.

قال: يا أبا حازم، مَنْ أَكْيَسُ[٢] الناس؟

قال: رجلٌ ظفر بطاعة الله، فعمل بها، ثم دلَّ الناس عليها.

قال: فمَنْ أحمقُ الناس؟

قال: رجلٌ اغتاظَ في هوى أخيه، وهو ظالمٌ، فباعَ آخرته بدنياه.

قال: يا أبا حازم، هل لك أن تَصْحَبنا، وتُصيبَ منا، ونُصيبَ منك؟

قال: كلَّا.

قال: ولِمَ؟

قال: إني أخاف أن أركنَ إليكم شيئاً قليلاً، فيذيقني الله ضِعْفَ الحياة، وضعفَ الممات، ثم لا تكون لي منه نصيراً.

قال: يا أبا حازم، ارفعْ لي حاجتك.

قال: نعمْ، تُدخلُنِي الجنة، وتُخرجني من النار.

قال: ليس ذلك إليّ.

---

(١) التكبر.

(٢) أعقل.

قال: فما لي حاجةٌ سواها.

قال: يا أبا حازم. فادْعُ الله لي.

قال: نعمْ؛ اللَّهم إن كان سليمان من أوليائك فيسِّرْه لخيرِ الدنيا والآخرة. وإن كان من أعدائك، فَخُذْ بناصيته إلى ما تحبُّ وترضى.

قال سليمان: عِظْني.

قال: أكثرت إن كنت من أهله، وإن لم تكنْ من أهله فماذا حاجتُك أن ترمَي على قوس ليس لها وتر؟

قال: يا أبا حازم، ما تقولُ فيما نحن فيه؟

قالَ: أوَتُعفيني يا أميرَ المؤمنين؟

قال: بل نصيحة تلْقيها إليّ.

قال: إن آباءَك غَصَبوا هذا الأمرَ عنوةً بالسيف عن غير مشورة، ولا إجماع من الناس. وقد قتلوا فيه مقتلةً عظيمةً، وارتحلوا، فلو شعرتَ[1] ما قالوا وقيلَ لهم.

فقال رجلٌ من جلساء سليمان: بئسَ ما قلت.

قال أبو حازم: كذبتَ، إن الله أخذَ على العلماء الميثاقَ: ليبيننَّه للناس، ولا يكتمونه.

قال: يا أبا حازم، أَوصِني.

قال: نعمْ، أوصيك وأوجزُ. نزّهِ الله وعظّمه أنْ يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

ثم قام. فلَمَّا ولّى قال: يا أبا حازم، هذه مئةٌ أَنْفقها، ولك عندي أمثالُها كثير.

فَرَمى بها. وقال: ما أرضاها لك، فكيفَ أرضاها لنفسي. إني أعيذُك بالله أن يكون سؤالُك إيَّايَ هزلاً، وردِّي عليك بذلاً. إن موسى بن عمران، عليه السلام، لَمَّا ورد ماءَ مَدْيَن قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٤]. فسأل موسى ربَّه، ولم يسأل الناس، ففطنتْ الجاريتان، ولم

(١) علمتَ.

يفطن الرِّعاءُ لما فَطِنتا له، فأتتا أباهما، وهو شُعَيْبٌ، عليه السلام، فأخبرتاه خبرَه. قال شعيبٌ: ينبغي أن يكون هذا جائعاً، ثم قال لإحداهما: اذهبي ادعيه. فلما أَتَتْه أعظمته وغطَّتْ وجهها ثم قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٥]. فلَمَّا قالت: ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٥] كره موسى، عليه السلام، ذلك وأراد ألَّا يتبعها. ولم يجدْ بُدّاً من أن يتبعها، لأنه كان في أرض مُسْبعة وخوف، فخرجَ معها، وكانت امرأةً ذاتَ عَجُزٍ، وكانت الرياحُ تضرب ثوبها، فتصفُ لموسى، عليه السلام، عَجُزَها، فيغضُّ مرة ويُعْرض أخرى. فقال: يا أمَة الله كوني خلفي. فدخلَ إلى شعيب، والعشاءُ مهيَّأٌ. فقال: كُلْ. فقال موسى: لا. قال شعيبٌ: ألستَ جائعاً؟ قال: بلى. ولكنَّني من أهل بيتٍ لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملءِ الأرضِ ذهباً، وأخشى أن يكونَ هذا أجرَ ما سقيتُ لهما. قال شعيب: لا، يا شابُّ، ولكنْ هذه عادتي وعادةُ آبائي قِرى الضيف وإطعامُ الطعام. فجلس موسى وأكل.

فإن كانتْ هذه المئةُ دينار عِوضاً ممّا قد حدثتُك، فالميتةُ والدمُ ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحلُّ منها. وإن كانت من مال المسلمين فلي فيها شُرَكاء ونظراء، إنْ وازيتُهم، وإلّا فلا حاجةَ لي فيها. إنَّ بني إسرائيل لم يزالوا على الهدى والتقى حيث كان أمراؤهم يأتون إلى علمائهم رغبةً في علمهم. فلَمَّا نُكسوا[1] وتعسوا[2] وسقطوا من عين الله، وآمنوا بالجِبْتِ والطاغوت، كان علماؤهم يأتون إلى أمرائهم، وشاركوهم في دنياهم، وشركوا معهم في فتنتهم.

قال ابنُ شهاب: يا أبا حازم، وإيّايَ تعني، أو بي تعرِّض؟

قال: ما إيَّاك اعتمدتُ. ولكنْ هو ما تسمع.

قال سليمان: يا بنَ شهاب، أتعرفُه؟

قال: نعمْ، جاري منذ ثلاثين سنة، ما كلَّمته كلمة واحدة قطُّ.

قال أبو حازم: إنك نسيتَ الله فنسيتَني، ولو أحببتَ الله لأحببتني.

قال ابنُ شهاب: يا أبا حازم. أتشتُمني؟

---

(١) ردّوا إلى ما كانوا فيه من ضلال.

(٢) عثروا وبعدوا عن الخير.

قال سليمان: ما شتَمَك، ولكن أنت شتمتَ نفسك. أمَا علمتَ أن للجار حقّاً كحق القرابة؟

فلَمَّا ذهب أبو حازم قال رجلٌ من جلساء سليمان: يا أمير المؤمنين تحبُّ أن يكونَ الناسُ كلُّهم مثلَ أبي حازم؟ قال: لا».

٢- أهل المجلس

كان أهلُ المجلس السابق من صَفْوةِ الصفوة في زمان سليمان بن عبد الملك. أبرزهم سليمانُ نفسه، وأبو حازم الأعرج سَلَمَةُ بنُ دينار [ت: ١٤٠هـ] وابنُ شهاب الزهريّ محمدُ بن مسلم [ت: ١٢٤هـ].

أمَّا أبو حازم وابنُ شهاب فقد حدثناك حديثهما، وما دار بينهما في دراستنا رسالة أبي حازم إلى ابن شهاب نهايةَ باب الرسائل، فإن أَحْوَجَك فهمُ ما نقولُه ههنا إلى شيء من أخبار الرجلين، فالتمسه هناك.

أمَّا سليمانُ بن عبد الملك[١] [ت: ٩٩هـ] فقد كان من أبرار الأمويين، أجمعت الأمَّةُ على تعديله، فلم يتخلّف عن بيعته أحد. ومن مآثره «أنه أطلق الأسرى، وأخلى السجون، وأحسنَ إلى الناس. وكان عاقلاً فصيحاً طموحاً إلى الفتح». قال الإمام الذهبي في ترجمته[٢]: «كان ديِّناً، فصيحاً، مفوَّهاً، عادلاً، محبّاً للغزو....وكان يستعينُ في أمر الرعية بعمر بن عبد العزيز، وعزل عمالَ الحجَّاج، وكتب: إن الصلاة كانت قد أُميتتْ، فأحيوها بوقتها. وهمَّ بالإقامة ببيت المقدس...وقيل: رأى بالموسم الخلقَ، فقال لعمر بن عبد العزيز: أَمَا ترى هذا الخلقَ الذين لا يُحصيهم إلَّا الله، ولا يسعُ رزقهم غيره؟ قال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء اليومَ رعيتُك، وهم غداً خصماؤك. فبكى، وقال: بالله أستعين».

وقال السيوطيُّ في إطرائه[٣]: «كان من خيار ملوك بني أمية...ومن محاسنه أنَّ عمر بن عبد العزيز كان له كالوزير، فكان يمتثل أوامرَه في الخير، فعزلَ عمَّالَ الحجاج». وأحسنُ محاسنِه أنه جعل ولايةَ العهد لعمر بن عبد العزيز، ولم تحمله الأَثَرةُ على جعلها في ولده. وحسبُك بهذه الخاتمة الحميدة دليلاً

(١) الأعلام للزركلي.
(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ١١١.
(٣) تاريخ الخلفاء/ ٢١٠.

على نُبله وفضله، وإيثاره الدينَ على الدنيا، ومصالحَ الأمة على الهوى، والعلماءَ على الشعراء، والفقهاء على المغنين، والأخذ بنصائح الأتقياء، وتقديم الزاهدين في المناصب والمكاسب من طبقة أبي حازم الأعرج على المتودِّدين إلى السلطة من أمثال الزهري.

٣- سبب عقده

إذا أعدت النظر في تراجم سليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، وابن شهاب الزهري، وأبي حازم الأعرج، استطعتَ أن تقعَ على الأسباب التي شجَّعت سليمان على أن يعقد هذا المجلس في المدينة المنورة، لا في دمشق، وأن يدعو إليه أبا حازم على كثرة العلماء الذين تقاطروا إلى مجلسه بلا دعوة، ومنهم ابن شهاب. فعمر جليسُ سليمان ووزيره، وتأثيره فيه تجلَّى في سياسته كلّها، حتى إنك تستطيع أن تعدَّ مسلك سليمان غير الزميت تمهيداً لتزمُّت عمر. ومن أوجه هذه السياسة أن يدأب سليمان على تعظيم العلماء عامة، والعلماء الزهَّاد خاصَّة. ولهذا عقد هذا المجلس، ودعا إليه أبا حازم، ولم يولِ الزهري وأمثاله من المتودّدين إلَّا عنايةً ضئيلة.

٤- أفكاره الأساسية

يشقُّ عليك أن تسلكَ هذا المجلسَ في غرض واحد من أغراض النثر الأدبي، لاشتماله على الدينِ والسياسةِ والاجتماعِ والأخلاق والتربية، فإلحاقُه بغرضٍ واحدٍ منها يبخسُ الأغراضَ الأخرى حقَّها، وينكر عليها ظهورها الواضحَ. وبعد النظر فيما عالجَ من موضوعات وأغراضٍ يمكنك أن تقعَ فيه على الأفكار البارزةِ التالية:

- معاتبةُ العلماء المعرضين عن الأمراء، واتّهامهم بالجفاء.
- بغضُ الموت ناجمٌ عن حبِّ الحياة الدنيا، وتخريبُ الآخرة بتعمير الدنيا من شيم الأَخْسَرين أعمالاً.
- أعظم الحكام من يحتكمُ إلى القرآن والحديث في سياسة الأمة.
- أهمُّ ما يتَّسم به الحاكم الصالح العدلُ بين الرعية، والجبايةُ والإنفاق بالسوِيَّة.

- أفضلُ البشر هم العقلاءُ المُحْسنون، العاملون بالشريعة، التوَّاقون إلى الجنَّةِ.
- تقرُّب العالِم إلى الحاكم يُبْعدُه عن الله، وإخلاصُ العلماءِ لله يُزَهِّدهم في جوائز الخلفاء.
- أَحْسَنُ ما يُدْعى به للحكام هو أن يُلْهِمَهم الله العملَ بما يُرْضي الخالق، لا بما يحفظُ المُلك.
- أوائلُ الأمويين غَصَبوا الحكمَ بالسيف، وعلى الأبناء أن يتوبوا عن خطايا الآباء.
- مَنْ كان همّه الفوز بالجنة في الآخرة لم يأخذْ أجراً على عمله في الدنيا.
- آيةُ العالمِ المنافقِ التودُّدُ إلى السلطان، والعيشُ في كنَفِهِ.
- الجوارُ قرابةٌ، حقُّ الجار على الجارِ يَعْدلُ حقوقَ ذوي القُربى بعضِهم على بعض.

٥- ملامحه الفكرية والفنية

زمانُ هذا المجلس نهايةُ القرن الهجريِّ الأوَّل، ومكانهُ المدينةُ المنوَّرةُ، والزمانُ والمكانُ يعنيان أن كلَّ ما قيل فيه صحيحٌ فصيح يُحْتَجُّ به. فإذا أضفت إلى فصاحة الألسنة المتحاورة رجاحةَ العقول المفكرة، وإيمانَ القلوب القريبة العهد بالنبوة ثبت لديك أن للنَّص أكثر من قيمة. فما الملامح الفكرية والفنية التي تجلَّت فيه، وجعلتنا نقدِّمه على ما سواه في الاختيار والدرس؟

أ) صدوره عن التصوّر الإسلامي

قد تقعُ في المجالس الأخرى المتحدِّرة إليك عن العصر الأمويِّ على أفكار إسلامية، تقاربُ الأفكارَ التي لَخَّصناها، ووضعنا عناصرَها الأساسيةَ بين يديك، لكنَّك قلَّما تقع على نصّ فيه مثلُ هذا الصدور العفوي عن جوهر العقيدة، ومثل هذا التأدُّب بالآداب الإسلامية التي صبغَتْ حياة المجتمع العربيّ الإسلامي، حتى كأنَّ كلَّ معنى فيه صدرَ عن التصوُّر الإسلاميّ الإنساني للحياة، ولما بعدَ الحياة. غير أن الحظَّ الأوفى، واللونَ الأوضح كان للتصوُّر الكلي، ولم يكن للتشريع القانوني، أو الأحكام الجزئية.

من ملامح هذا التصوُّر اعتقادُ أبي حازم أن الموتَ ينقلُ الإنسان من دار الفناء إلى دار البقاء، وأن الذين يكرهون الموتَ هم الذين خرَّبوا آخرتهم بمعاصيهم في الدنيا. وأن الجنةَ دارُ الأبرار، والنار دار الفجّار، وأن المؤمن الخالصَ الإيمان يلقى في الآخرة أحبَّته، فهو لذلك تواقٌ إلى الآخرة، لا خائفٌ منها.

ومن ملامحه أيضاً أن يخلص الإنسان في عمله إخلاصَه في عقيدته وعبادته، وأن يدَّخرَ أجر العمل في الدنيا للآخرة، وأن يحسَّ إحساساً صادقاً عميقاً أن رحمة الله قريبةٌ من المحسنين، وهذا الإحساس يحملُه على الإحسانِ إلى الناس، ومعنى ذلك أن يتحوَّل التصوُّر الإيماني النظري إلى سلوكٍ عملي.

ب) مضمونه السياسي

قد يذهب بك الظن إلى أن أبا حازم، لإمعانه في العبادة، وإصراره على الزهادة، لم يفكر قط في شؤون السياسة، وأن اعتزاله الخلفاء والأمراء فَوَّتَ عليه الاطلاع على أسرار الحكم وأحوال الإدارة.

والحقّ أن أبا حازم أسهم في السياسة بالرأي المجرد من الهوى، البريء من الانتماء إلى حزب من الأحزاب. فهو لهذا السبب لم يشارك فيها مشاركة من يرنو إلى مكاسبها، أو يطمح إلى مناصبها، فتجلت مشاركتها في أمور:

أولها إنكارُه حقَّ الأمويين في الخلافة، واتهامُه خلفاءهم الأوائل بأنهم أخذوا ما ليس لهم بقوة السيف، لا بالشورى والإجماع، فقال لسليمان: «إن آباءَك غصبوا هذا الأمر عنوة بالسيف عن غير مشورة ولا إجماع من الناس، وقد قتلوا فيه مقتلةً عظيمةً وارتحلوا».

الثاني حثُّ الحكَّام على العدل، وجباية الأموال العامّة وإنفاقها بالسويَّة، لا بإيثار بني أمية على الرعية. قال أبو حازم لسليمان: «تدعون عنكم الصلف، وتقسمون بالسوية، وتعدلون في القضية». وقال أيضاً لسليمان: «تأخذه بحقه، وتضعه لحقه في أهله». وقال له في مجلس آخر[1]: «تنظرُ ما كان في يدك مما ليس بحقّ، فتردُّه إلى أهله، وما لم يكنْ لك لم تنازعْ فيه غيرَك».

والثالثُ تنبيهُ الحاكم على ظلمه، وتخويفُه غضبَ الله عليه، لأن أفضلَ الجهاد كلمة حق تقال لسلطان جائر، أو كما قال أبو حازم: «كلمة صدق عند

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٠/ ٧١.

من ترجوه أو تخافه». ولم يكتف أبو حازم بهذا التنبيه بل شفعه بحجة مستلهمة من كتاب الله، تأمر العلماء بأن يجهروا بالحق، وينصحوا للحكام، فقال: «إن الله أخذ على العلماء الميثاق لَيُبيِنُنَّه للناس ولا يكتمونه». والتحذيرُ من الظلم ظهر على نحوٍ أوضحَ وأصرحَ في مجلس آخر، طلب فيه سليمانُ من أبي حازم أن يدعوَ له، فجاءَ جوابهُ تخويفاً لا طمأنة، «قال سليمان: يا أبا حازم؛ ادعُ الله لي، قال: ما ينفعك أن أدعو في وجهك، ويدعو عليك مظلومٌ من وراء الباب، فأيُّ الدعاء أحقُّ أن يجاب؟ فبكى سليمان، وقام أبو حازم».

والرابع حملته العنيفة[1] على ابن شهاب الزهري وأمثاله من العلماء المتودِّدين إلى الأمراء، ورميُه إيَّاهم بالمَلَق والنفاق، والانتهاز والابتزاز، لأنهم أعوانُ الحاكم على المحكومين، وشركاءُ الظالم في الظلم، وهؤلاءِ العلماء كعلماء بني إسرائيل الذين ظهروا في عصور الفساد. قال أبو حازم: «إن بني إسرائيل لم يزالوا على الهُدى والتقى، حيث كان أمراؤهم يأتون إلى علمائهم رغبةً في علمهم. فلَمَّا نُكِسوا وتَعِسوا وسَقطوا من عين الله، وآمنوا بالجِبْتِ والطاغوت كان علماؤهم يأتون إلى أمرائهم، وشاركوهم في دنياهم، وشركوا معهم في فتنتهم».

لقد كان أبو حازم يحرص الحرص كله على أن يتجنب كل موقف يخزيه، ويلحّ أشدّ الإلحاح على الزهادة في أموال الأمراء إذا كان في مجلس رسمي، ويبالغ في الإلحاح إذا حضر المجلس نفر من العلماء على النحو الذي تبدى لك في إلقائه مئة الدينار إلى سليمان، كأنما وضع في راحته جمرات من نار. تحدث عن هذا السلوك الزميت ابن عساكر[2]، فقال: «إن أبا حازم دخل على سليمان بن عبد الملك بالشام في نفر من العلماء. فقال سليمان: يا أبا حازم، ألك مال؟

قال: نعم، لي مالان.

قال: ما هما، بارك الله لك؟

قال: الرضى بما قسم الله تعالى لي، والإياس عمّا في أيدي الناس.

قال: يا أبا حازم، ارفع لي حاجتك.

---

(١) انظر: باب الرسائل - أبعادها السياسية والاجتماعية.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ١٠/ ٧١.

قال: هيهات، رفعتها إلى من لا تختزل الحوائج دونه، فما أعطاني شكرت، وما منعني صبرت، مع أني رأيت الأشياء شيئين: فشيء لي، وشيء لغيري. فما كان لي، فلو جهد الخلق أن يردوه عني ما قدروا. وما كان لغيري فما نافست فيه أهله فيما مضى، فكيف فيما بقي؟ وكما منع غيري رزقي كذلك منعت رزق غيري».

وزبدةُ الرأي أن المجلس السابق ينطوي على فكر سياسيّ، أوفى على الغاية في العُمق والشمول والحكمة، وأنه يُمثِّل المعارضة الفكرية، ويستندُ فيما يعارض إلى أحكام الشريعة، لا إلى المصالح الحزبية أو الشخصية.

ج) آدابه الاجتماعية

ذكرنا قبلُ أن التصوُّر الإسلامي هو المصدر الفكريُّ الذي صدرت عنه المحاورةُ في المجلس السابق. ولَمَّا كان الإسلام عقيدةً وشريعةً، وعبادة وقيماً، وأخلاقاً وسلوكاً، فإن التحاور السياسيَّ الطاغيَ عليه كان يُلامس بعضَ القيم الاجتماعية والأخلاقية، وينوِّه بالفضائل التي دعا الإسلام إلى التخلُّق بها.

وأبرزُ هذه الفضائل التواضعُ والاعترافُ بالخطأ، والإقرارُ بالحقِّ، ولو كان الحقُّ للرعية على الرعاة، أو كان المخطئُ الخليفةَ نفسَه لا شرطيّاً من صغار الجند. ومن هذا الضرب إقرارُ سليمان بن عبد الملك على نفسه بالغلط حينما قال: «أصاب الشيخُ وأخطأتُ أنا».

ومنها الكياسةُ بعدما عرَّفها أبو حازم بأنها العملُ بطاعة الله، ونُصْحُ الناس بالخير الخالص لوجهه.

ومنها التحذير من الحماقة، وتعريفُها بأنها المصادقة على الهوى، والتعصُّب للصديق، لأن حبَّك الشيءَ يعمي ويصمّ، ويدفعك إلى أن تنصرَ أخاك ظالماً أو مظلوماً بالمعنى الجاهلي للنصرة.

وأبرزُ ما اشتمل عليه المجلسُ من الشؤون الاجتماعية الإقرارُ بحقِّ الجار، والسخرُ من ابن شهاب الزهري الذي جاور أبا حازم ثلاثين سنة، وهو يُجافيه. وعلَّةُ هذه المجافاة أنَّ ابن شهابٍ كان يهربُ ممَّا يمثله جارُه من القيم لا من جارِه نفسه. لقد كان يخشى أن يسمعَ منه ما يُبَغِّض إليه مصاحبةَ الأمراء، أو ما يبغِّضه إلى الناس، لأن الكثرةَ الكاثرةَ من البشر تحقرُ المتودِّدَ المتزلِّف، وتُكْبِرُ المتزهِّد المتعفِّف.

لقد كان أبو حازم بتزمته وتعنُّتِه، وبغُلوِّه في سُموِّه يلتزمُ أكثر ممَّا التزمَ لِذاتُه من خيار التابعين، كأنَّه يريدُ أن يجعل نفسَه المثلَ الأعلى، حتى إن سليمان- على إقراره بنبالته- لم يُطِقْ أن يكون كلُّ الناس على شاكلته. جاء في آخر المجلس: «فلمَّا ذهبَ أبو حازم قال رجلٌ من جُلساء سليمانَ: يا أميرَ المؤمنين، أتحبُّ أن يكون الناسُ كلُّهم مثلَ أبي حازم؟ قال: لا».

د) توهُّجه العاطفي

ربّما خطر لك قبل أن تُمعن في القراءة أنَّ المجلس السابق نصٌّ فكريّ خالص، لأنه حوارٌ سياسيّ، نجم عن التصور الإسلامي، فهو على هذا الأساس مبادئُ وأفكار، وقيمٌ مجردة، لا ينبض فيها عرق، ولا يتخلَّج لاعج. لكنك لا تكادُ تقرأ سطراً أو سطرين حتى تبدأ العواطف بالاقتداح من تبادل الحوار، واحتكاك الجواب بالسؤال، وتأثر سليمان بأبي حازم، وانتقال العدوى الانفعالية من جليس إلى جليس. فكيف تعلِّل هذا التوهُّج لدى الطرفين؟

تعليلُه عند سليمان أن نفسه كانت مُعدَّة للتأثر بما يلامسُها من إثارة بأدنى شرارة، فقد جعلتها مصاحبتُها عمرَ بن عبد العزيز أرضاً خصبة تنتظر الماءَ حتى تمرع، أو هشيماً يابساً، يرتقبُ الاقتداح حتى يحترق. فكانت بداية الإثارة العتاب، والردَّ عليه، وما أعقب الردَّ من إقرار سليمان بالخطأ. ففي إقراره ندمٌ واعتذار، يمازجهما تودُّد وإعجاب، بلا تذمُّر ولا توتر من الطرفين.

فلَمَّا ذُكرت الجنةُ والنار، والأبرارُ والفجار، والرحمةُ والنقمة، والهاربُ من ربِّه المسحوب إليه بذنبه، دبَّ الخوف في قلب سليمان، فبكى بكاءَ النادم على ما وقع، الخائف ممَّا يتوقَّع حتى «علا نحيبُه، واشتدَّ بكاؤه». عندئذٍ يُحسُّ القارئ أن المجلس انقلب من محاورة فكريّة إلى تواجد عاطفي، ينكسرُ فيه صاحب السلطان للناطق بالحق.

وتعليلُ التوهج العاطفيّ عند الأعرج أنه تزهّد وتعبَّد، وقطع صلته بمطامع البشر، وأخرج من قلبه كلّ ما يعمر قلوبهم من أهواء، وأدخل فيه شيئاً واحداً، وهو الخشوع لله. فإذا هو يحتقرُ المال،ويزدري السلطانَ، ويترفَّع عن المناصب، ويسخرُ من المتزلِّفين إلى الحكَّام، ويُنطقُه خوفُه من الله بما يُخيفُ الملوكَ والعلماء منه. فسليمانُ يغدو بين يديه كالطفل، وابنُ شهاب يتضاءل،

كأنه مذنبٌ، لا يريد أن يعترف بذنبه، ويبقى أبو حازم وحده بين كلٍّ من ضمَّ المجلسُ شامخَ الرأس، شديد البأس، لا يُخيفه شيءٌ، لأنه لا يطمعُ في شيء.

لقد طالعك خُمْس المجلس أو رُبعه بهذه العواطف كلِّها، فإذا تحسَّسْتَ ما وراء الأرباع الأخرى خرجتَ بمشاعر أخرى، تصوِّرُ ما كان يدور في العصر الأموي من صراع عنيف بين الدين والدنيا، والمبادئ والمطامع، بأسلوب عفويّ مؤثر، يكاد يبزُّ الموزونَ المقفى.

هـ) زهده في التصوير والبديع

من أهمِّ الملامح التي تتراءَى لك في النصِّ كلِّه على طوله، خلوُّه من التصوير. وعلَّةُ ذلك أن أبا حازم كان يرمي إلى الإقناع بالفكرة لا الإمتاع بالصورة. ولهذا وجَّه عنايته كلَّها إلى المضمون الفكري والعاطفي، وأهملَ الشكل الفني. فإذا اعتلقتَ صورة في قوله: «ترمي على قوس ليس لها وتر» بدا لك أنها لم تُرْسم بريشة الفنّ بغيةَ الإدلال بالجمال، وإنما جُسِّمت بها الفكرةُ لترسخ في العقل. وما يقال في التصوير يُقال في البديع. فالأسلوبُ من بداية الحوار إلى نهايته عفويٌّ مرسلٌ، فطريُّ الصياغة، لا سجعَ فيه، ولا ازدواج. فإن صادفتْك سجعةٌ، أو وقعتَ على طباق بين العامر والخراب، والحياةِ والممات، والدنيا والآخرةِ، فاعلمْ أنه لم يُؤت به للتنميق والتزويق، وإنّما هو شكلٌ من أشكال التفكير المنطقي، يقذفه العقل إلى اللسان، وهو يتنقل بين الأضداد.